

الساحة الإعلامية في أفريقيا: حالة جنوب أفريقيا

أ.د/ فضيل دليو
كلية علوم الإعلام والاتصال والسمعي البصري
جامعة قسنطينة 3

ملخص:

لقد أصبح شائعاً أن نبدأ الحديث عن أهمية وسائل الإعلام والاتصال عند مقارنة موضوعات تخص التغييرات السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية، على المستويات المحلية، الإقليمية والدولية. ولكن حديثنا هنا أكثر تواضعاً لاستهدافه أبعاداً تعليمية محدودة وعامة، وذلك من خلال تقديم لمحة موجزة عن واقع المشهد الإعلامي في القارة الأفريقية بصفة عامة وفي دولة جنوب أفريقيا على وجه الخصوص. وغرضنا من ذلك لفت الانتباه إلى بعض خصائص محيطنا الإقليمي لأهميته في بناء جسور التفاهم والتعاون الإقليميين.

الكلمات المفتاحية: جنوب أفريقيا، وسائل الإعلام

Abstract

It has become necessary to talk about the importance of the media and communication tools within the approach of political, economic, cultural, social, local changes, at regional and international levels. Here our speech is more modest, because it targets a specific and general educational dimensions, by providing a brief overview of the reality of the media landscape in the African continent generally and particularly in the South Africa. Our objective is to attract the attention to some of the characteristics of our regional surroundings to its importance in building bonds of regional understanding and cooperation.

Key words: South Africa, the media

مقدمة

لقد أصبح من نافلة القول في معظم المناسبات البدء بالكلام عن أهمية وسائل الإعلام والاتصال في عصرنا الحالي لارتباط إرادات التغيير السياسي والاقتصادي والثقافي والاجتماعي بها كمحرك ومدعم ومستدرك لها، على المستويات الدولية، الإقليمية والمحلية . ولكن حديثنا هنا أكثر تواضعا لاقتصار هدفه التثقيفي العام على تقديم نظرة موجزة عن واقع الساحة الإعلامية في أفريقيا عموما وفي جنوبها خصوصا رغبة منا في التعريف بمحيطنا الإقليمي القاري بعدما كثر الحديث عن الفضاءات الإقليمية الشمالية، وكلاهما مهم في بناء جسور التعارف والتعاون المثمرين.

من المعلوم لدى المهتمين أن الساحة الإعلامية في أفريقيا تتميز عموما ببعديها الشفوي المباشر (التقليدي) والإذاعي الوسيلي (المعاصر)، على حساب وسائل الإعلام المكتوبة والمرئية، ولكن وسيلتي التلفزيون والانترنت أصبحتا تشكّلان منافسا قويا للإذاعة بسبب عولمة وسائلهما وتحسن ظروف التربية والتعليم والاقتصاد في الكثير من الدول الأفريقية وفي مقدمتها جنوب أفريقيا.

وفيما يلي بعض مؤشرات ذلك:

1- الساحة الإعلامية في أفريقيا: نظرة عامة

تعتبر أفريقيا عموما و"جنوب الصحراء" خصوصا أقل مناطق العالم تطورا من حيث وسائل الإعلام والاتصال. ففي عام 2004 قدر البنك العالمي أن نسبة استهلاك اليوميّات في أفريقيا بلغت حوالي 10 نسخ فقط لكل ألف ساكن، مقابل أزيد من 200 نسخة في أوروبا و131 نسخة كمتوسط عالمي. وهي حاليا (2015) تحتل المرتبة الأخيرة في مجال استخدام الانترنت. ويرجع هذا التخلف إلى أسباب داخلية معروفة: أولها الفقر، حيث ينخفض الدخل الفردي فيها عن المعدل الأوروبي مثلا بأكثر من عشرة أضعاف . مما يحد من تداول واستهلاك وسائل الإعلام ولا يشجع على الاستثمار الإعلامي الوسيلي أو الإشهاري . كما أن للأمية، التي يفوق معدلها 50%، دورا مهما في تخلف قطاع وسائل الإعلام والاتصال المكتوب . تضاف إلى ذلك محدودية شبكات الاتصال عموما والاتصال عن بعد خصوصا، مما يقلل من فاعلية التواصل ومن حجم الجمهور؛ ومحدودية الأسواق الوطنية غير المشجعة على الاستثمار المحلي؛ وفشل معظم المحاولات الجهوية والقارية التعاونية في هذا المجال بسبب النزاعات السياسية والإثنية . وخير

مثال على ذلك عدم نجاح وكالة الأنباء الأفريقية (Pana)، التي تأسست منذ 1980، في تأدية وظيفتها (ALBERT, LETEINTURIER: 1999, 146). وهناك عوامل أخرى اجتماعية وثقافية، مثل الترفيع المهيمن في السكن وأنماط المعيشة، مما يقلل من فرص نجاح قطاع السعي بصري، وتعدد اللغات الأصلية (مع قلة الإمكانيات المادية ونفسي الأمية)...

ومن جهة أخرى، لا يمكن إغفال العوامل الخارجية للتخلف والمتمثلة أساسا، أولا وكخلفية تاريخية، في الاحتلال الأوروبي الناهب للثروات الطبيعية والمحطم للمؤسسات الثقافية والشبكات الاجتماعية المحلية؛ وحاليا في الهيمنة الإعلامية الأوروبية والكابحة عموما لأي تطور محلي والمشجعة أحيانا على الخلافات والنزاعات السياسية والعرقية.

فمن المعروف أن مختلف قوى الاحتلال الأوروبية أخضعت مغانمها الأفريقية (باستثناء إثيوبيا وليبيريا) لأنماط مختلفة من الإدارة والسيطرة. وقد ميز الدارسون بين الأساليب الفرنسية (في الجزائر، تونس، المغرب، موريتانيا، السنغال، الكونغو، تشاد، النيجر، مالي، توغو، بوركينافاسو، غينيا، الغابون، مدغشقر، جزر القمر، جزر موريس...) والبريطانية (في نيجيريا، سيراليون، غامبيا، غانا، الكاميرون، مصر، السودان، الصومال البريطاني، كينيا، أوغندا، زامبيا، زمبابوي، بوتسوانا...) والبرتغالية (في أنجولا، موزمبيق، غينيا البرتغالية) والبلجيكية (في بوروندي، رواندا، زائير) والألمانية (في ناميبيا، زنجبار، تنغنيكا) والإسبانية (في غينيا الاستوائية والصحراء الغربية) والإيطالية (في ليبيا، إريتريا والصومال الإيطالي) في تسيير أنظمتها الاستدمارية. ومع ذلك، فإن هؤلاء الدارسين أنفسهم، عادة ما يعالجون نتيجة الاستثمارات المختلفة كعملية فرض موحد لنمط "الدولة القومية" المضجرة في المشروع الاستعماري والمكرسة للتخلف بمختلف أشكاله.

ومع ذلك، ففي مجال الصحافة المكتوبة مثلا، تجمع معظم المصادر على أن أولى مطابع الصحف وصلت إلى أفريقيا في سياق الاحتلال البريطاني والفرنسي لأفريقيا مع نهاية القرن الثامن عشر والرابع الأول من القرن التاسع عشر. ففي عام 1794 أرسلت لندن إلى "قريتاون" (عاصمة سيراليون) أول مطبعة صحف، ولكنها دمرت في غارة فرنسية على ساحل المدينة قبل استخدامها. ولم تفعل الطباعة عمليا هناك حتى عام 1800، تاريخ استقدام مطبعة ثانية، حيث تم طبع صحيفتين: "المعلن السيراليوني" (Sierra Leone Advertiser) والصحيفة الملكية (Royal Gazette)، تلتها عدة صحف أفريقية محلية وأوروبية المصدر (Ziegler, Dhyana; Molefi K., Asante: 1992, 11).

وفي السنة نفسها، صدرت في رأس الرجاء الصالح (Capetown) أول صحيفة في جنوب أفريقيا (Capetown Gazette)، وقبل ذلك بقليل في مصر (جريدتان بالفرنسية عام 1798 وجريدة بالعربية عام 1800) بعدما استقدم نابليون مع حملته إلى مصر مطبع تين مدعمتين لها، وبعد ذلك بثلاثين سنة (1830) اصطحب المحتل الفرنسي أول مطبعة له إلى الجزائر... ثم توالى إصدارات الصحف الأوروبية والمحلية في القارة الأفريقية إلى حين نيل كل الدول استقلالها، وإصدارها صحفا ومجلات عمومية وخاصة، وإقامة محطات بث إذاعي وتلفزيوني وطنية، محلية ودولية... بالإضافة إلى تأسيسها بعض الهيئات والمؤسسات الإعلامية الجهوية والقارية.

ولكن الملاحظ عموما في مجال الصحافة المكتوبة أنها بعدما كانت في خدمة المحتل تحولت أساسا بعد الاستقلال إلى تلبية احتياجات الإدارات التسلطية الحاكمة ورغبات السلطات السياسية المتعاقبة. كما بقي توزيعها على العموم مقتصرا على المدن والفئات الميسورة والمتقنة من سكانها، وذلك حتى مطلع التسعينيات من القرن الماضي حيث بدأت تتلاشى أنظمة الحزب الواحد مما فسخ المجال للصحافة باثراء مضامينها بالمعالجات السياسية والاجتماعية والثقافية لمختلف الأحداث والقضايا، كما تعددت عناوينها اليومية والأسبوعية وزادت مقروئيتها خاصة بفضل التراجع النسبي للأمية والقراءة الجماعية وبصوت مرتفع للأمين في بعض الدول. ولكنها وجدت في وسائل الإعلام الأوروبية منافسا قويا خاصة عند الطبقات الميسورة وفي الأوساط الأوروبية المستوطنة، التي تفضل غالبا قراءة كبرى النشريات الأوروبية الأصلية (Le Monde, The Times...) أو الموجهة للنخب الأفريقية مثل (Jeune Afrique, West Africa). والشئ نفسه تقريبا يمكن قوله عن الإذاعات الدولية (RFI, BBC...) والقنوات التلفزيونية الفضائية (CNN, BBC, France 24, TV5, CANAL HORIZON). هذه القنوات التي أصرحت تنافس بقوة التلفزيونات المحلية.

وتجدر الإشارة هنا إلى تميز قطاع الإذاعة، حيث تعمل محطات الراديو الوطنية بانتظام. كما سمحت تكلفة شراء أجهزة استقبالها المنخفضة وسهولة تشغيلها بتعميمها تقريبا، بل بتعدد استعمالها جهويا وبمختلف اللغات المحلية؛ وذلك بخلاف التلفزيون، الأقل انتشارا، والذي تزيد تكاليف تشغيله عشرة أضعاف على الأقل عن تكاليف الراديو.

وكما هو معروف، تطور التلفزيون المحلي منذ الستينيات في معظم البلاد الأفريقية وبقى لفترة طويلة محتكرا من طرف الدولة... ولكن معظم دول أفريقيا بدأت تتبنى تدريجيا النظام

المختلط في هذا المجال مستفيدة من موجة التحرر الإعلامي الذي رافق رياح الديمقراطية السياسية بعد سقوط جدار برلين وتفكك المعسكر الاشتراكي في التسعينيات من القرن الماضي، مع ملاحظة أن تعددية وسائل الإعلام وخصوصتها كانت بارزة أكثر في الدول الأنجلوفونية "الكومنولثية" منها في الدول الفرنكوفونية الناتجة عن الاحتلال الفرنسي.

ولكن تبقى المضامين البرمجية في الحالتين مدينةً وتابعةً في الغالب للإنتاجين الأوروبي والأمريكي، اللذين لا يلبيان بالطبع احتياجات وحساسيات الأفارقة، والتي حصرتها اليونسكو منذ الستينيات من القرن الماضي في التربية والتعليم والتنمية. والأمر نفسه يمكن قوله تقريبا على الإنتاج السينمائي الذي لا يزال ضعيفا حتى اليوم.

وتجدر الإشارة في الأخيرة إلى أن أفريقيا تأتي في المرتبة الأخيرة في مجال استخدام الانترنت بنسبة لا تتجاوز 28.6%، بعد آسيا بـ 40.2% وبعيدا عن أمريكا الشمالية التي تأتي في المقدمة بـ 87.9% (<http://www.internetworldstats.com/Nov.2015>).

ونظرا لتنوع الساحة الإعلامية الأفريقية تبعا لتنوعها الجغرافي والعنقي واللغوي والديني وطبيعة محتلتها الأوروبي السابق، فالمفروض أن نقدم نماذج إعلامية محلية تعكس هذا التنوع. ولقد جرت العادة عند تصنيف مختلف مناطق أفريقيا الحديث عن شمال أفريقيا (دول المغرب العربي والساحل الأفريقي)، أفريقيا جنوب الصحراء (بشرقيها وغربها)، بالإضافة إلى الحالة المتميزة لدولة جنوب أفريقيا. فهي حالة تعبر عن تاريخ استيطاني ونظام فصل عنصري ومعارضة نشطة وذات نفس طويل. كما تعبر عن حالة متطورة جدا على الساحة الأفريقية في مجال وسائل الإعلام.

وسنكتفي هنا بعرض الحالة المتميزة لجنوب أفريقيا، مؤجلين الحديث عن باقي الحالات النموذجية في شمال أفريقيا (مثل مصر والجزائر)، وفي غربها (مثل نيجيريا)، وفي شرقها (مثل كينيا) في حالة الرغبة في تغطية أوفى للساحة الإعلامية في أفريقيا.

2- الساحة الإعلامية في جنوب أفريقيا

يقطن جنوب أفريقيا حاليا (2016) حوالي 55 مليون نسمة، وهم يتميزون بنسبة أمية منخفضة أفريقيا (11.3%) عند البالغين منهم (+ 15 سنة)، يتوزعون على عدة إثنيات (أهمها الزولو: 20%)، يتكلمون عشر لغات رسمية بالإضافة إلى الإنجليزية كلغة مهيمنة في مجال الإدارة والأعمال والعلم، ويدين معظمهم بالمسيحية (68%) (2% مسلمون). وهم يتكونون من ثلاث فئات أساسية: أقلية بيضاء (8.9% من أصل هولندي وبريطاني... استوطنوا منذ منتصف

ق. 17) تتميز بمستوى معيشي ميسور، وأغلبية أفريقية (79.2%) يعيش معظم أفرادها حياة صعبة، أما الملوتين / متعددي الأعراق (8.9%) والهنود/ الآسيويين (2.5%) فمعظمهم ذوو مستوى معيشي متوسط (https://en.wikipedia.org/wiki/South_Africa).

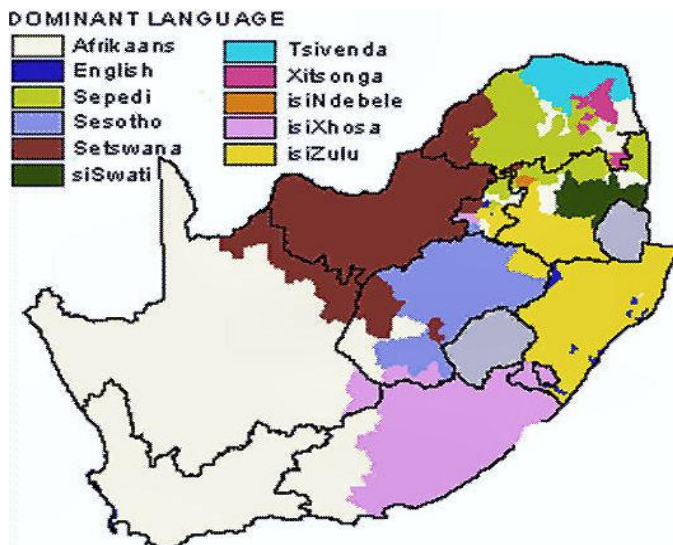
وتتميز جنوب أفريقيا بموارد طبيعية هامة (الذهب والفضة والغاز واليورانيوم ...) ونظام سياسي جمهوري (غير عنصري منذ 1994) ونخب محلية فعالة، مما جعلها تخطو خطوات تنموية نوعية مكنتها من أن تكون أول قوة اقتصادية في أفريقيا وأن تضاف مؤخرا إلى قائمة الدول الناشئة المشهورة باسم "البريك" (تحولت بمعيتها إلى "البريكس" /Brics): البرازيل، روسيا، الهند، الصين وجنوب أفريقيا.

وتعتبر جنوب أفريقيا من أهم المراكز الإعلامية في القارة، وتعكس وسائلها الإعلامية التنوع الإثني واللغوي لمكوناتها المجتمعية، ولكن مع هيمنة واضحة للغة الإنجليزية في مجالات الإدارة والأعمال والعلم، متبوعة باللغة الأفريكانية (Afrikaans) التي تنافسها خاصة في قطاع الصحافة المكتوبة (بخلاف قطاع الإذاعة)، بالإضافة طبعا إلى المجموعتين اللغويتين الرئيسيتين: "نغوني/Nguni" (الزولو والخوزا) و"السوتو" (السوتو والتسوانية)، ولكن هذا بالطبع لا يعكس الأوزان النسبية الديمغرافية للسكان ولا الواقع اللغوي في الحياة اليومية (أنظر خريطة غوغل اللغوية أدناه)، حيث تشير إحصائيات 2011 (Pretoria: Statistics South Africa.) 2011-23-25 إلى تقدم متكلمي لغة "الزولو" (+11 مليون ونصف) كلغة أولى، يليهم متكلمي لغات: "الخوزا" (+8 ملايين)، "الأفريكانية" (قراءة 7 ملايين)، "الإنجليزية" (قراءة 5 ملايين) ثم السوتو والتسوانا والسونغا...

وفيما يلي عرض موجز لأهم اللغات المحلية في جنوبية أفريقيا:

تكونت اللغة الأفريكانية منذ القرن 17 انطلاقا من اللغة الهولندية، وتأثرت كثيرا بلغات أخرى (الإنجليزية، الملاوية، الألمانية، البرتغالية، الفرنسية وبعض اللغات الأفريقية). وتطورت كلغة شفوية فقط حتى القرن 19، حيث بدأت تدوّن في مخطوطات بأحرف عربية (الأفريكانية العربية) ثم لاتينية، قبل أن تعتمد هذه الأخيرة عام 1925 كلغة كتابة رسمية لجنوب أفريقيا مع اللغة الإنجليزية، لتضاف إليهما دستوريا مع نهاية القرن 20 تسع لغات محلية أخرى هي: "الخوزا/Xhosa" كلغة وطنية لقبائل "ترانسكي ويسيكي"؛ "الزولو /Zulu" كلغة وطنية لـ "كوا زولو"؛ "التسوانية/Tswana" لـ "بوتسوانا"؛ "السوتو الشمالي /Pedi" لـ "بيوا"؛ "السوتو الجنوبي /Sotho" لـ "كواكوا"؛ "فندا/Venda" لـ "فندا"؛ "تسونجا/Tsonga" لـ "غازانكلو"؛ "سوازيلاند/

Mkhize, 1992, 58-) نديبيلي "ل" - "Ndebele / "ل" - "swazi "ل" - "كا-نغواني"؛ و "نديبيلي" / "Ndebele "ل" - "كا-نغواني" (Mkhize, 1992, 58-) (61).



ومنذ 1994، تاريخ إلغاء نظام الميز الع نصري، واعتماد دستور جديد يضمن حرية التعبير والإعلام، أصبحت جنوب أفريقيا في مقدمة تصنيفات المنظمات غير الحكومية للدول المحترمة لحرية الصحافة (المرتبة 24 عام 2011-2012 من أصل 179 دولة)، ولكنها وكمعظم الدول الليبرالية تعاني من مشكلة الاحتكار في المجال الإعلام ي، حيث تهيمن بعض المؤسسات (Avusa, Naspers, Independent News and Media, and CTP/Caxton) على كل الصحف واسعة الانتشار.

1.2- الصحافة المكتوبة

يعود تاريخ الصحافة المكتوبة في جنوب أفريقيا إلى عام 1800، حيث أصدرت حكومة الاحتلال البريطاني في رأس الرجاء الصالح (Capetown) صحيفتي (Capetown Gazette) و (African Advertiser)، تلتها عام 1824 أول صحيفة خاصة (SA Commercial Advertiser) ثم أول صحيفة باللغة الهولندية (De Zuid-Afrikaan) عام 1830، فأول صحيفة بإحدى اللغات الأفريقية (اللغة النغونية) (Umshumayeli Wendaba) عام 1837...

مع العلم أن الصحافة الأنجليزية كانت منذ أوائل القرن التاسع عشر وحتى الأربعينيات من القرن 20، هي المهيمنة وغالبيتها تابعة للمصالح المنجمية وتدار من طرف مهاجرين بريطانيين (ناشرين، طابعين وصحافيين) على الطريقة البريطانية الكلاسيكية، لتوزع في كبرى المراكز الحضرية.

أما صحافة اللغة الأفريكانية فبعد ظهورها في العشرينيات من القرن الماضي، نمت بسرعة في الأربعينيات لتتحول مع الوقت إلى قوة كبيرة مدعمة لحصول الحزب الوطني الأفريقي على مكانة سياسية في أواخر الأربعينيات. أما أول يومية باللغة الأفريكانية فهي (De Burger Die Burger) والتي تحول ناشرها (Malan) لاحقا إلى زعيم للحزب الوطني ووزير أول. مع ملاحظة أنه لم يكن يسمح للصحافة الأفريكانية أن تنتقد، سياسات التمييز العنصري أو السياسة الخارجية لجنوب أفريقيا، وذلك حتى منتصف الثمانينات. حيث تغيرت الأمور تدريجيا وببطء مع ظهور أول صحيفة راديكالية مناهضة للتمييز العنصري (Die Vrye Weekblad)، ثم التنبني التدريجي للقيم الصحافية الليبرالية الكلاسيكية.

أما ما يسمى بـ "صحافة السود"، فهي تختلف تماما عن الصحافتين الأنجليزية والأفريكانية. بداية، نشأت كصحافة تصيرية موجهة للسود أثناء فترة الاحتلال وكانت توزع يوميا تربية ودينية. في الثلاثينيات من القرن العشرين أسس الماقل (Bertrand Paver) صحافة "البنتو" (Bantu Pres) لتوزع على نطاق أوسع على السكان السود. لكن تغطيتها لأخبار سنوات الحرب ع. 2 المتنوعة بالقمع الممارس من طرف نظام الفصل العنصري أدى إلى غلقها، بيعها أو خضوعها سياسيا.

ومع ذلك، ظهرت في الأربعينيات والخمسينيات صحافة سود راديكالية نشطت بطريقة غير قانونية فكان توزيعها محدودا. وكان السود يقرأون الصحافتين الأنجليزية والأفريكانية، واستمر الأمر كذلك حتى التسعينيات حيث أنشأ بعض السود صحافة موجهة خصيصا للقراء السود. وفي عام 2004، أدى النجاح الواسع لأول صحيفة "تابلويد" وما تلاها من صحف مشابهة إلى تحويل صحافة السود إلى ظاهرة جماهيرية لأول مرة في تاريخ جنوب أفريقيا، ولكنها كانت تابعة أيضا للهيئات المهيمنة (الصحافة الوطنية والصحف المستقلة) (Hallin & Mancin : 2012, 98-). (116).

وهو ما أكده "شبرسون وتوماسلي" (Shepperson & Tomaselli : 2009, 479) بإشارته إلى وجود ثلاثة قطاعات خاصة من الصحافة انحازت إلى ثلاثة اتجاهات سياسية مختلفة بعد

نهاية الحرب العالمية الأولى (1918). حيث تحالفت الصحافة الإنجليزية (الأوروبية) مع الرأسمال الإنجليزي الجنوب أفريقي "التعديني/ المنجمي" المهيمن حتى منتصف التسعينات، للدفاع عن الرأسمالية والاكتفاء بعدم انتقاد نظام الميز العنصري علنا (Muted criticism of apartheid)، على الأقل حتى منتصف السبعينيات . أما الصحافة الأفريكانية (Afrikaans)، المؤيدة لنظام الفصل العنصري والمرتبطة بالسلطات الحاكمة طيلة فترة (1948-1994)، فكانت مناهضة - حتى مطلع الثمانينيات- للرأسمالية وموالية للاشتراكية الوطنية الأفريكانية . وأما الصحف الأفريقية المعارضة و "البديلة" والأقل رسميّة فكانت دائما مناهضة للفصل العنصري وللرأسمالية ومؤيدة للديمقراطية (Tomaselli and Louw, 1991). فالأنواع الصحافية الثلاثة أنتجت في نهاية المطاف أدبا وثقافة سياسية واقتصادية مناهضة للعنصرية، رغم تعرضها جميعا لرقابة ومضايقات أجهزة الحزب الوطني الحاكم.

إن نهاية النظام العنصري في أوائل التسعينيات واعتماد دستور جديد (1994) يضمن حرية التعبير والإعلام فصح المجال لتتويع الخطابت الأيديولوجية للصحف وتنوع مالكيها. حيث استثمر الرأسمال "الأفريقي" في الصحافة المكتوبة، التلفزيون وصناعة الترفيه ، وذلك بمشاركة العمال وبعض المساهمين التقليديين في البورصة . مع ملاحظة بداية تلاشي الانقسامات الأيديولوجية السابقة أمام الدوافع الاقتصادية المغربية. إن قابلية نمو السوق المحلية والتاريخ الطويل للاستثمار في وسائل الإعلام وقوة الرأسمال الجنوب أفريقي أثناء المرحلة العنصرية جعلت لاحقا المؤسسات الإعلامية المحلية محمية إلى حد كبير من الرأسمال الأجنبي الراغب في امتلاكها (Shepperson & Tomaselli : 2009, 479).

ومن جهة أخرى، و على غرار الراديو وبخلاف التلفزيون، تمكنت الصحافة المكتوبة من تخطي الفوارق الطبقية والعنصرية بين قرائها، وخاصة في المدن، ومن التطور شكلا ومضمونا. فوسائل الإعلام في جنوب أفريقيا-بخلاف معظم الدول الأفريقية الأنجلوساكسونية- كان مظهرها دائما ذي نوعية رفيعة، وكانت مبدعة في التصميم وتابعة لرأسمال جنوب أفريقي محلي (Mkhize, 1992).

وتبعاً لاستطلاع مكتب التوزيع (ABC) لعام 1996 كان في جنوب أفريقيا 36 يومية وأسبوعية في المدن الكبرى، 29 منها باللغة الإنجليزية وأربع بالأفريكانية واثنين بلغة "الزولو" (Zulu) وواحدة بلغة الخوزا (Xhosa). بالإضافة طبعا إلى العديد من العناوين المحلية الصادرة بعدة لغات. مما جعل عدد النسخ المباعة يوميا يبلغ حوالي 1.3 مليون نسخة، وعدد المجالات

بضعة ملايين . كما جعلها تصدر - رقيقة بوتسوانا - قائمة نسبة استهلاك اليوميات في أفريقيا حسب تقديرات البنك العالمي لعام 2004، بحوالي 30 نسخة لكل ألف ساكن (المعدل الأفريقي حوالي 10 نسخ).

ومن أهم الصحف الخاصة الصادرة بالإنجليزية في جنوب أفريقيا:

يوميات: "Cape Argus" بأزيد من 500 ألف نسخة، "The Citizen" بأزيد من 450 ألف نسخة، "Mail & Guardian" بحوالي 450 ألف نسخة، "The Cap Times" بحوالي 280 ألف نسخة، "Rapport" بحوالي 235 ألف نسخة...

كما يوجد حوالي 280 مجلة جنوب أفريقية والعديد من المجلات المستوردة . ويهيمن على الجماهيرية (العامة) منها أربعة ناشرين : مؤسسة "ناسبرس" (Naspers) المتحكمة في ثلثي ما ينشر، بالإضافة إلى الثلاثي (Perskor, CTP Holdings, Times Media L.)، مع ملاحظة مؤخرا تراجع المجلات العامة لصالح المجلات المتخصصة و /أو الموجهة أساسا للسود، مثل مجلة (Drum) وخاصة المجلة لعائلية (رفيق المنزل : Huisgenoot، بمليون قارئ أسبوعيا)... اللتين تنشرهما مؤسسة "ناسبرس" بالإضافة إلى عناوين مهمة أخرى مثل : You, Fair Lady, Sarie, Insig, SA Sports Illustrated, Kickoff, ... (www.en.wiki.2012).

وفي الأخير تجدر الإشارة إلى أن توزيع وسائل الإعلام المطبوعة يصل في بعض الأحيان إلى المناطق شبه الحضرية، بسبب وجود بنية تحتية للنقل واسعة . كما أن بنى تحتية أخرى للاتصالات (الأسلاك التواصلية ذات الدورة الكاملة - en boucle - والهواتف الخلوية) والتي كانت متوفرة -ولو على نطاق محدود- منذ الخمسينيات، جعلت من الممكن لأخبار وأحداث هذه المناطق أن تصل إلى غرف الأخبار . ومنذ عام 1994، تم العمل بجدية أكبر على جعل هذا "الترابط" في وسائل النقل والاتصالات أكثر كثافة (Shepperson & Tomaselli : 2009,) (480).

2.2- الإذاعة والتلفزيون:

يعتبر الراديو (الإذاعة) أكثر الوسائل الإعلامية انتشارا، بثه على كل الموجات، وعلى المستويات الوطنية والمحلية والدولية، وتحت إشراف السلطات العمومية المركزية والمحلية أو الجمعيات والمجموعات الحضرية أو الريفية أو الإثنية ... وبالعديد من اللغات . وتعتبر محطة

(Lesedi FM) أكثرها شعبية بأزيد من ستة ملايين مستمع أسبوعيا
(www.en.wiki...2012).

كما أظهرت بعض الدراسات (Raubenheimer 1990)، إن وسيلة الإعلام الوحيدة التي تظهر بعض مؤشرات الوصول إلى معظم سكان جنوب إفريقيا — وخاصة السود منهم — هي الراديو. وأن 80% من المستمعين السود يفضلون البرامج بلغتهم الخاصة. فالراديو يتمتع فعلا بجماهير واسعة — 14 مليون مستمع يوميا (مع نهاية القرن الماضي) — بالمقارنة مع نصف هذا العدد من مشاهدي التلفزيون وسُيُعه (7/1) من قراء الصحف (Mkhize: 1992, 172).

وترجع أصول الراديو في جنوب أفريقيا إلى عام 1904 مع إدخال أجهزة لاسلكية إلى قاعدة تابعة للبحرية الملكية البريطانية، تبعها تشغيل محطة إرسال حكومية في "جاكوبس" (Jacobs)، بالقرب من "دوربان" (Durban) في عام 1910. ولكن اندلاع الحرب العالمية الأولى وضع حدا لنطور اللاسلكي في جنوب أفريقيا. مع نهاية الحرب، لم يتم فقط توسيع الإرسال اللاسلكي ولكن أيضا تدشين الهواتف اللاسلكية. ففي عام 1921، وضعت أول محطة عملية للاتصالات الهاتفية اللاسلكية قرب "بورت اليزابيث"، سمحت لاحقا (في ديسمبر 1923) بمباشرة أول بث إذاعي تجريبي في "جوهانسبرج" من قبل شركة "ويسترن إلكتروك"، ليليه بث منتظم من طرف "الجمعية العلمية والتقنية لجنوب أفريقيا" في فاتح جويلية 1924 في منطقة جوهانسبرغ. وفي عام 1936 تم إنشاء "هيئة إذاعة جنوب أفريقيا" (SABC) العمومية، تلاها بعد الحرب العالمية الثانية إنشاء عدة مؤسسات خاصة وجهوية (Springbok Radio, Orlando Rediffusion, Radio Bantu, Good Hope, Highveld...) تحت إشرافها، حاولت توسعة البث الإذاعي ليشمل جميع بلدات السود، وبأهم لغاتهم: الخوزا، الزولو، السوتو، البيدي، التوسوانية... ومنذ مطلع 1962 على موجات "الأف أم" أيضا، حيث قُدِّر في نهاية 1965 عدد الرخص الممنوحة للبث الإذاعي من طرف هيئة (SABC) بمليونين ونصف المليون رخصة. وفي 1966/05/01 تم تأسيس الإذاعة الدولية لجنوب أفريقيا والمزيد من الإذاعات الجهوية والمحلية الموجهة للبيض والسود والمولتدين: Lotus, Jacaranda, Algoa, oranje, Radio Metro, Radio Sesotho, Radio Zulu... (Mkhize: 1992, 53-70).

وقد تم ذلك، في رأي البعض، على خلفية سياسة الفصل العنصري التي تؤكد ليس فقط على الفصل بين البيض والسود، ولكن أيضا على الاختلافات العرقية داخل مجتمع السود في حد ذاته، تطبيقا لقاعدة "فرق تسد" (Tomaselli et al.: 1989, 95). لقد أراد الحزب الوطني في جنوب

أفريقيا في ظل نظام الفصل العنصري، أن يستعمل هيئة الإذاعة (SABC) للتقسيم القبلي والتشجيع للنشاط للغات المختلفة لضمان استمرارية دولة الفصل العنصري . وبالطبع، اعتمدت اللغة الإنجليزية، كلغة وطنية ولغة رجال الأعمال، في حين أن استعمال لغات السود كان لها علاقة مع "احتياجات التقسيم والسيطرة الجيوسياسية للفصل العنصري أكثر من كونه معيارا لغويا" (Louw : 1992, 52). فحكومة الحزب الوطني، من أجل فرض سياسة الفصل العنصري، أنشأت تسعة تجمعات (أو أمم) قبلية سياسية مرتبطة كل واحدة منها بلغة وطنية خاصة، "بهدف -حسب "توماسيلي وآخرون (Tomaselli et al : 1985, 96) - المحافظة وبعث وإعادة تعريف القيم القبلية التقليدية والمؤسسات الاجتماعية وخاصة في التجمعات القبلية التي اجتهد في تقوية التبعية لسلطتها . وهذا لديه بعد ثانٍ ، فمن خلال تعزيز التبعية إلى السلطات القبلية، تكون الدولة قادرة على بسط سيطرتها بطريقة مقنعة ، بحيث يتم دفع الأجور لزعماء القبائل باعتبارهم موظفي الدولة، وبالتالي دمجهم في الدولة.

ولقد عبر "نيفيل ألكسندر (Neville Alexander : 1989) في كتابه : "السياسة والوحدة الوطنية في جنوب أفريقيا" عن رفضه لكل من لغات المجموعات التي اعتمدها الحزب الوطني العنصري والسياسة اللغوية المضمرة (في وعي السود) وجود فقط الإنجليزية باعتبارها اللغة الوطنية. فاقترح لغة وطنية واحدة وهي الإنجليزية و دمج اللغات الأفريقية في لغتين جهويتين (الفخوني والسوتو) باعتبارهما المجموعتان اللغويتان الرئيسيتان في جنوب أفريقيا . أما "إريك لوف" (Louw : 1992, 56) فاقترح إضافة لغة جهوية ثالثة (الأفريكانية). ووفقا له، تتمثل الاستفادة من وجود لغة وطنية واحدة وثلاث لغات جهوية في:

- (1) فعالتي إدارة الدولة والأعمال (التجارة).
- (2) تيسير عملية التخلص من الفصل العنصري اللغوي؛
- (3) (ولكن) مع استمرارية الاعتراف بالتنوع اللغوي بحكم الأمر الواقع في البلاد من خلال دمج سبع لغات في لغتين.

وبخلاف قناة "القيم الثقافية المعاصرة" التلفزيونية (CCV-TV)، التي تحاول إتباع مقترحات "لوف"، فإن الراديو لا يمارس حتى الآن مثل هذا الاستخدام اللغوي باستثناء "راديو خوزا" والذي يستخدم على حد سواء الخوزا والإنجليزية في وقت متأخر من الليل.

مع العلم أن هيئة الـ (SABC) الحكومية كانت تقدم في التسعينيات من القرن الماضي 23 خدمة إذاعية (ومنها: إذاعة جنوب أفريقيا، الإذاعة 1... الإذاعة 5، بورت ناتال، أورانج،

جاكارندا...) نشطة في وسائط الإعلام الإلكترونية كمؤسسات مذيعة ومنجدة (Mkhize: 1992, 61-71).

وفي الأخير، تجدر الإشارة بإيجاز لوسيلة التلفزيون التي تعتبر أكثر الوسائل الإعلامية خضوعا للضبط في جنوب أفريقيا . فقطاع السمي بصري (إذاعة وتلفزيون) يخضع لـ"السلطة المستقلة للاتصالات في جنوب أفريقيا " (ICASA) التي تمنح حقوق البث . وهي لم تمنحها لحد الآن سوى لعدد محدود من القنوات التلفزيونية الخاصة، مع اشتراطها في العقد ضرورة بث نسب معينة تخص محتويات محلية وتربوية.

مع العلم أن هناك أربع قنوات بث تلفزي أرضي تابعة لـ "هيئة إذاعة جنوب أفريقيا" (SABC) الحكومية: SABC 1, SABC 2 & SABC 3، بالإضافة إلى قناة (e.tv). كما توجد قنوات تلفزيونية أرضية وساتلية بالدفع وبعضها يبث عبر الانترنت.

ومنها قناة "الرقم الثقافية المعاصرة" (CCV-TV) التابعة لهيئة الـ (SABC) والتي تعمل على إتباع مقترحات "لوو" (لغة وطنية وثلاث لغات جهوية) سابقة الذكر، محاولةً استيعاب جميع المستويات من الجمهور في جنوب أفريقيا . فهي تبث بلغتي "الفنغوني والسوتو" في النهار وفي الليل باللغة الإنجليزية واللغة الأفريكانية.

وفيما يخص قنوات هيئة الـ (SABC) فالقناة الثانية كانت تبث أصلا في لغات "الفنغوني" (الزولو والخوزا)، في حين أن القناة الثالثة كانت تبث بلغات السوتو (السوتو والتسونانية). اقتصر بث هاتين القناتين على مناطق معينة : (القناة الثانية للئاتال، الرأس الأخضر والتراتسفال، والثالثة فقط للتراتسفال وبلومفونتين). أما القناة الرابعة فهي قناة إضافية خاصة بالأفلام والإعلانات التجارية. وخلافا لهذه القنوات، تركز قناة CCV-TV في ببرامجها على الطبقات الوسطى والنخبوية من السود المقيمين بعدد متزايد في المناطق الحضرية "البضاء"، وهي أكثر تطورا ومؤمركة جدا في محتواها (Mkhize: 1992, 61).

خاتمة

هذه هي أهم ملامح وسائل الإعلامية "الجماهيرية" في جنوب أفريقيا (صحف، راديو وتلفزيون)، والتي يمكن إجمالها في تميزها بتاريخ طويل ومعقد يرجع إلى القرن التاسع عشر . وأنها تتوزع عموما على ثلاثة أصناف إثنية-لغوية: صحافة اللغة الأنجليزية، صحافة "الأفريكانز" (AfriKaans) وصحافة السود.

مع العلم أن تاريخ تطورها عبارة - حسب تعبير "هاندلاند/ Handland" (Hallin & Mancin : 2012, 98-99, 102-117) - عن مزيج من تاريخ صحفي موجه بقوة وفترات من توجه صحفي ليبرالي قوي وحاليا بتدخل بين للدولة، وأن سوق وسائل في جنوب أفريقيا يتميز أيضا بالزبونية الإعلامية، بنقص معتبر في المعارف الجماهيرية، بعدم المساواة في التعرض لوسائل الإعلام مع تركيز على الصحافة الوطنية والجهوية والتفرقة الحادة بين صحافة النوعية وصحافة الإثارة، وبوجود نظام شبه ديمقراطي بحزب قوي/مهيمن في ديمقراطية ناشئة، وبلغ عدم صحافة حزبية سياسية، مع رقابة ذاتية وضغوط بدعوى الإعلام التنموي، واحترافية بطيئة... كما أن التوجه نحو مزيد من الليبرالية يقاوم بشدة.

مما يجعل دراسة موقع النظام السياسي-الإعلامي في جنوب أفريقيا غير حصيل دون الأخذ بعين الاعتبار عدة عناصر فاعلة، أهمها: اللغة والعرق والإثنيات والدين ... والمحيطين الإقليمي والدولي.

المراجع:

1. ALBERT, Pierre & LETEINTURIER, Christine: Les médias dans le monde. Enjeux internationaux et diversités nationales, Paris, Ellipses, 1999.
2. Dhyana Ziegler, Molefi K. Asante : Thunder and Silence: The Mass Media in Africa. Africa World Press, Trenton New Jersey, 1992.
3. Hallin & Mancin : Comparing Media Systems Beyond the Western World, Cambridge Univ. Press. 2012.
4. Louw E. : 'Language and National unity in a Post Apartheid South Africa' in critical Arts (Vol. 6 No.1 1992).
5. Mkhize, Velaphi Victor (1992) 'The Spoken and the Written Word: Stylistic Creation in Black Broadcasting', PhD thesis, University of KwaZulu-Natal. Durban. In : http://researchspace.ukzn.ac.za/xmlui/bitstream/handle/10413/2450/Mkhize_Velaphi_Victor_1992.pdf.txt?sequence=3
6. Neville Alexander: Language Policy and National Unity in South Africa (Buchu books, Cape Town), 1959.
7. Orlik P. 1970. 'The South African Broadcasting Corporation: A Historical Survey and contemporary Analysis'. Unpublished PhD Thesis. Wayne State University. In : Mkhize, (1992), P.53.
8. Pretoria: Statistics South Africa. 2012. In : www.statssa.gov.za/publications/SASStatistics/SASStatistics2012.pdf
9. Raubenheimer L. 1990. 'Towards an Open Media for a New South Africa'. In Media, December 1990. In Mkhize, Op. Cit., 1992, p.539, 554.
10. Rosenthal E. 1974. You Have Been Listening: The Early History of Radio in South Africa. Purbell. Cape Town. In : Mkhize, (1992), P.53.

11. -Shepperson, Arnold & Tomaselli, Keyan G.: Media in Africa: Political, Cultural and Theoretical Trajectories in the Global Environment, The International Communication Gazette. 2009, Vol. 71(6): 473–489. The online version Downloaded from <http://gaz.sagepub.com/cgi/content/abstract/71/6/473> by delliou fodil on December 29, 2009
12. Tomaselli R., Tomaselli k. and J. Muller J. : 'Currents of Power: state Broadcasting in South Africa'. Anthropol. 1989.
13. Tomaselli, K.G. and A.E. Louw : The Alternative Press in South Africa. Belville: Anthropol. 1991.
14. Ziegler, Dhyana; Molefi K., Asante: Thunder and Silence: The Mass Media in Africa, Africa World Press, New Jersey, 1992,.
15. <http://www.internetworldstats.com/>.Nov.2015 .
16. https://en.wikipedia.org/wiki/South_Africa. 2016.